بين انتفاضتين ... وقصص باقية

المتوكل طه

I

تلك انتفاضة كاملة!

كان الفهد خارجاً بكامل سخونته، من الغابة البكْر، يحمل قلب الريح، كأنه عاهل العاصفة، كان ريّاناً، مُشْبَعاً بغضب الاشجار التي ماتت واقفة، ولم تركع! وكان صمته قطَعاً من غضب الليل، الذي كَنَس البساطير الثقيلة من ليل المدن والقرى، وجعل يقظة الخوف أبديةً فيَ حدقات الخونة والجنود .

تلك كانت انتفاضة . أما هذه فإنها سبعٌ روّضته البيوت، وأطلقته على الدخلاء . أما تلك فكانت فهداً بريّاً، له أناقة البرق وإغواء الغزال .

هذه صوت الرأس، أما تلك فكانت شعلة الجسد كلّه.

تلك كانت زفّة واحدة أو جنازة واحدة، أو بالأحرى كانتا متداخلتين إلى درجة اختلاط الدمع بالحبق، وملوحة عرق الأعراف بعسل شهد الفرس .

تلك كانت صيحة إسرافيل الفلسطيني، الذي أيقظ الحجر والشجر والطير والينبوع، أما هذه فصحوة الجسد، من خَدَر العملية الجراحية الفاشلة .

تلك كانت غيث كانون الواضح، أما هذه فهي تردد الغيمة في أيلول .

تلك كانت البداهة والبديهة، أما هذه فإنها صنعة الثوب الكنعاني المطرّز .

تلك كانت الدخول الحاسم إلى بهاء الموت برضى كامل، أما هذه فالحسابات تزاحم المشهد الذي يشدّك إلى أن تغسل الأرض، كل الأرض بوريدك الكريم .

تلك تاج المليحات، وأم الحكايات، وقصّة الراوي الذي لن تنتهي لياليه . أما هذه فهي مسرحية الكاتب الناضج، الذي تقلّب على سفّود الجمر، وما فتئت تأكل كبده ليل نهار .

تلك لحم التفاحة الأحلى، وليلة الدخلة التي لن ننسى لذعة السوسن فيها، أو حُرقة عجين ورقة الليمون، وصخب أغنيات الأهل الفرحين، أما هذه فهي زواج الوردة للمدى الدامي، في فضاء قاعة المدعوين والشهود .

تلك شهوة الزيت، وانفعال الشفتين، ورضى الزوجات عن الغياب المليء بالدوالي والرسوخ. أما هذه فإنها البهجة بالموت العالي، والفجيعة باللوعة المجانيّة .. أحياناً .
وتلك مقابسات ليالي القبر التي أشرقت بالجنين الرسولي، أما هذه فهي نهضةُ الفتى لتكتمل دروسه، وتصحو مداركه .

* * *

يغيب الآن الموسم كله، بإرهاصاته، وحلقاته وأسواقه وتجمعّاته! وتحضر هندسة الحرب، لتبعدنا أكثر عن فطرة ما كان في الموسم من حالات وحكايات . كأن الناس كانوا في موسم قطف الزيتون، أو بناء معبد كبيرَ، أو كأنما يريدون تحويل نهر عظيم عن مجراه، أو إزاحة البحر إلى الوراء .. لهذا لم يتأخّر أحد! كان الرجال أطفالاً وشباناً وشيوخاً في الحقل أو البرّ، وكانت النساء يكملن أعمالهن في البيت دون توقف!
ولعل التاريخ لم يشهد حالة انشغال دائبة مثل التي كانت، أيام الانتفاضة الكبرى – ولا أقول الأولى – هذه الانتفاضة قيدت الكثير من الناس، واقتصر فعلها على جيل محدد، يتمتع بلياقة رمي الحجارة واستعمال المقلاع، أو على المُدَرّبين جيداً، على استخدام السلاح والرشاشات. مما جعل الكثيرين، وبالتحديد، القاطنين في المدن المحررة «المناطق أ» يبحثون عن دور مباشر لهم في هذه الانتفاضة، فلا يجدوه! مما جعل الكثيرين يرزحون تحت وطأة ضميرهم وسؤاله القاسي الممّض، وهم يرون الشبان الصغار يبتلعون أدوارهم، ويتربعون على عرش المشهد السخيّ الجريء .
كما أن المرأة تراجع دورها كثيراً، ولم تهيء لها هذه الانتفاضة، ذلك الدور الواسع العملاق، الذي وفرته لها تلك الانتفاضة، حيث حلّت المرأة مكان زوجها الذي اعتقلوه، فأصبحت أماً وأباً، وعمّق حضورها ذلك الدور الاجتماعي المشرّف، الذي ظهر في تشييع الجنازات التي طالما انتهت باشتباك طاحن مع جنود الاحتلال، وفي عيادة الجرحى، ومواساة العائلات الثكلى، وزراعة المساكب والخضروات، وتطوير الاقتصاد البيتي ..
ولم نسمع أحداً يسأل عن مصير أُسرته، وهو في حمأة الزنازين، أو في عين المتراس الحمراء .. ولم يخلع الناس – آنذاك – التطهريّة التي تليق بالأولياء والفلاحين البعيدين .. ولم يسقط رجل في إغراء المقارنة بين الطبقة المستريحة الحريرية، التي تشكلت في السنوات الأخيرة، وبين أحوال الدهماء أو الرعاع – الذين يسميّهم البعض! وينظر إليهم بأنهم ليسوا أكثر من حطب، يصلح للاشتعال، تحت طنجرة السياسة، حتى تنضج، وبالتالي لا يأكل منها إلاّ الطبّاخون المعلمونً، أو المَهَرة .
وفي تلك الأيام، كان الإنضباط أعلى، في السنوات الثلاث الأولى، وكان جدار الانتفاضة صلباً، لم تخترقه الأصابع الخفية المدسوسة، أو الشائعات السوداء . وكان الاستنفار كاملاً، ولهفة الناس حاسمة، حيث

نكشوا حواكير بيوتهم وزرعوها، ورموا المنتوجات الاسرائيلية، وكانوا أكثر قناعة بالتقشف الحقيقي، الذي فاق زهد الرهبان في الجبال الجرداء، ولم تكن – حينها – تلك المجموعة التي تدبّ الآن بين الناس، تشدّها مصلحتها – بصفتها كمبرادور يستورد البضائع الإسرائيلية، أو وكلاء لكبرى شركات الدولة العبرية – أو يدفعها طموحها الأجوف – بصفتها، كما ترى نفسها، مؤهلة للحُكم أو من أولي الأمر، الذين يجب أن يصنعوا القرارات المصيرية للشعب والقضية .

وفي تلك السنوات، كانت عبقرية الانتفاضة تتمثل في تحييد اسلحة الاحتلال الثقيلة، باعتمادها على الحجر والمولوتوف، كما تتمثل، أيضاً، بالإلتزام الحديدي والدقيق بالقرارات التي كانت تصدرها القيادة الوطنية الموحدة، عبر بياناتها آنذاك .

أيام الانتفاضة الكبرى كانت لها لون واحد هو الأبيض، الذي يسعى للانتصار على الأسود بكل مكوناته ومصادره . ولم يدخل الرماد إلاّ بعد ثلاث سنوات أو أكثر، من بدء ذلك الانفجار العبقري الواسع والعميق.

في تلك الأيام، كانت روح الجندي المجهول تمور في ضلوع كل الناس، فكان التكاتف والتكامل والتكافل قد وصل إلى أقصى صوره ودرجاته، إلى حدّ أستطيع ان اقول، دون مبالغة: ان المليونين ونصف فلسطيني في الضفة والقطاع، كانوا أُسرة واحدة، فالأب للجميع، والأم والدة كل الأبناء والبنات، والأولاد أشقاء نزلوا من مجرى واحد وعسيلة واحدة، يتشابهون إلى حدّ التوأمة، ويتسامحون إلى أن أصبح الإيثار، لغة منحوتة، لا يغلبها قولٌ مشبوه أو صراخ حاسد .

تلك الانتفاضة غسلت الجسد الواحد، من كل أدرانه وشوائبه، بعد أن صهرته في مرجل هائل، وسكبته لامعاً مضيئاً، لا طريق له إلا الأمام، بعد أن أحرقت هنا وهناك، تلك الجيوب المُعيبة سواء كانت بؤرة للمخدرات، أو السقوط الأخلاقي، أو علبة لليل القاصف، أو بقعة كريهة متصلة بالاحتلال، أو الشقاوة المريبة.

تلك كانت التاج الذي أكمل حجارته المسحورة، والعُرْس الذي اكتمل إلى حدّ المعجزة، والحجر الخرافي الذي حكّ هواء الفولاذ، فدبّت النار في هشيم الدنيا، وفهقت السماء بنجومها، فغاب الليلُ .. إلاّ قليلاً .. بانتظار الشروق الكبير .

* * *

لعل أسباب انفجار تلك الانتفاضة وهذه، هي واحدة، تتركز وتعود للاحتلال، بكل ما يعنيه، من استلاب ومهانة وقهر وإذلال، يولّد رغبة محمومة، هي ما يشكل القرار الحاسم الذي يسعى للتخلّص من كل ذلك، لتهيئة الأيام القادمة، لتكون أكثر قبولاً ولطفاً وكرامة . لكن الانتفاضة الكبيرة تلك، ولولاها، لما وجدت هذه الانتفاضة طريقاً ممهداً لتمضي فيه . بمعنى أن تلك الانتفاضة عملت على تسوية أول درب للشعب الفلسطيني ليمضي إلى مستقبله، بعد أن عملت الأعمال الفدائية منذ انطلاق الثورة حتى حصار بيروت، على تهشيم وتحطيم الصخور الكأداء الضخمة التي كانت تسدّ الطريق أمام شعبنا .

وبمعنى أن تلك الانتفاضة قد أسست لشكل نضالي شعبي «سلمي» يتوفر لنا، لتوظيفه، كلّما دعت الحاجة لذلك، وخصوصاً بعد أن تراكمت الأسباب الداعية لذلك .

وثمة سبب ساهم في اشتعال هذه وتلك الانتفاضة، ألا وهو الاحتقان المكتوم، الذي يتقلّت، هنا وهنا، ويتجلّى في النكات الساخرة، أو الاحتجاجات السياسية المحصورة، أو الخطابات الموسمية الخجولة، أو ينداح في الجلسات الخاصة، والذي يتمحور حول هامش الخطأ فينا. وبالرغم من أنه هامش مسكوت عنه، إجمالاً، ولم يصل إلى حدّ خلق صوت معارض يحمله بكيفيّة يكفلها القانون أو الدستور، إلا أنه كلام حق، يتدحرج .. ويكبر، ويختلط بالمبالغة حيناً، ويستغله الاحتلال حيناً آخر، إلا أنه موجود، ويشكّل سبباً هامشياً للاحتجاج وإعلاء صوت الغضب .

فالانتفاضة تلك انضجتها حالة القمع المتواصلة، وحالة الوعي التي تعالت من مصدرين كبيرين هما المعتقلات والجامعات المحلية، في حين أن الانتفاضة الحالية أنضجتها حالة الاحباط والغضب وممارسات الدولة العبرية التي لا تُطاق .

وقد كشفت لنا هذه الانتفاضة، وبشكل صريح واضح، أن عقليتنا عذريّة تماماً، وأننا لم نستخلص العبر من الانتفاضة الكبيرة، وأن الاخطاء تتكرر، وتُبْهظُنا بشكل مجانيّ، كأن الرعاة لم يروا الذئب إلا اليوم .

ومما يعمّق الأسى والأسف، أيضاً، أن هذه الانتفاضة لديها من الأدوات، ما لم يتوفر لتلك الإنتفاضة .. وبالرغم من كل هذا وذاك .. فإننا لم نوظّف هذه الأدوات كما يجب!! ومثالنا على ذلك وجود التقنيات المتطورة في عالم الإعلام والإتصالات، من فضائيات وبريد الكتروني، وانتهاء بتكنولوجيا الأسلحة الدقيقة.

وبالرغم من عدم وجود وسيلة إعلامية سمعية أو مرئية فلسطينية، في سنوات الانتفاضة تلك، وبالرغم من فرض منع التجول لمدة وصلت إلى ثلاثة أشهر متواصلة، على مدن وقرى كاملة .. إلاّ أن الناس لم يُصابوا بحالة من الهلع، خوفاً من نقص المواد الغذائية أو الماء أو انقطاع الكهرباء أو مشتقات النفط!؟

وبالرغم من أن الاحتلال أغلق الجامعات والمدارس، وفتح سجوناً ومعتقلات جديدة، لتتسع لعشرات الآلاف من المعتقلين والأسرى .. إلاّ أن الجامعات الفلسطينية كانت تؤدي رسالتها، في غير مكان، وينتقل المحاضر مع طلبته، رغم الحواجز ومنع التجوال، من مكان إلى آخر، مثلما ظلّت الجامعات البوابة الأولى التي تشتعل، ليكتمل الحريق المقدّس .. ويمتد من الجامعة إلى المسجد فالكنيسة والشارع والمخيم .

كان الشاب في الانتفاضة تلك يخجل من نفسه، ويتحاشى نظرات أهله وجيرانه، إذا لم يُعتقل أو ينخرط في أتون المجابهة . وكانت المجالس جميعها تتغنّى بالبطولات الجماعية، وتبحث عن دورها لتؤديه .. كأنها برلمان صغير أو مجلس شورى للحارة أو البلدة، وكانوا يحرصون على الانتفاضة حرصهم على دماء ابنائهم، وأيام فلذات أكبادهم التي تنزف تحت رعب الهراوات ومدافع الغاز والكلاب المسعورة والرصاص المجنون، في ساحات السجون والزنازن المرعبة!

لم تعرف الانتفاضة تلك أنْ تَمَايز جارٌ عن جاره، أو ضرب أحدهم دفّاً في عرس ابنه، ولم يخشع لشهادة ابن بلده! أو وضع أحدهم ربطة عنق يوم العيد، في حين تحوّلت المضافات والبيوت الثكلى، إلى عناق حميم وأيد تضع «ما تيسّر» في أياد أُخرى .

لقد كانت تّلك الانتفاضة، إثباتاً ناصًعاً على إمكانية تحقيق أحلام الجمهوريات المثالية أو اليوتوبيا .. رغم الحالة الاستثنائية التي كان يعيش الناس تحت وطأتها، بل ربما ساعد وجود الاحتلال وتحدّيه،

بتلك البسالة الجماعية المتواصلة، على سموّ الناس وارتفاعهم عن «عاديّتهم» واختراقهم للصورة الطبيعية المعتادة .

أما هذه الانتفاضة، فإنها تحاول جاهدة أن تتمثّل تلك الانتفاضة، وأن تشبهها وتقلّدها، وتستطيع أن تنجح إلى درجة كبيرة، لأسباب كثيرة أهمها القمع الاحتلالي الفاشي، ومواصلته لممارسة عجرفته وصبّ غطرسته وساديّته، دون هوادة أو تمييز . غير أن هذه الانتفاضة قد طرأ عليها عاملان رئيسان، أولهما انتشار السلاح بين أيدي المواطنين الفلسطينيين، وثانيهما وجود سلطة وطنية فلسطينية، تربطها اتفاقات سلميّة مع دولة الاحتلال . إلا أن رغبة الناس الأكيدة في التخلّص من الاحتلال بكل أشكاله، وغضبهم من ممارساته المُذلّة الكريهة، وإحباطهم من العملية السياسية، التي لم يروا على سطحها إلا سكاكين الموت والمستوطنات وتهويد المقدسات، واللطم على الوجوه .. جعلهم يجددون عزيمتهم، وينطلقون في موجة جديدة من «الانتفاضة» ويدخلون حلقة أخرى، من حلقات الصراع مع الدولة العبرية الغاصبة .

ويبدو لي أن خيط التردد الذي يعيق هذا المارش الجماعي الجديد، هو ما يجب أن ينبتّ وينقطع ويزول، وأعني أن الكثير من الناس يعتقدون بأن هدف هذه الانتفاضة هو تحسين شروط التفاوض مع إسرائيل، وهذا ما يثبط من عزيمة الشارع الفلسطيني، ويفسر تردّد الخطوات الذاهبة إلى المتراس أو الشهادة . وهذا يوجب على السلطة الوطنية الفلسطينية، وبسرعة فائقة، التأكيد على أمر واحد، في هذا الشأن، وهو أن هدف هذه الانتفاضة هو إزالة الاحتلال كلّياً، وإقامة الدولة المستقلة على التراب الوطني الفلسطيني حتى حدود الرابع من حزيران، والقدس الشريف عاصمتها، وتكون دولة كاملة السيادة على فضائها ومعابرها وحدودها، وفوق كل ذلك وقبله، عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى أرضهم الأولى .

ولعلي أؤكد هذا الطلب الحيوي، أيضاً، لأن الاحتلال الاسرائيلي، كان ينظر إلى الفلسطينيين خلال الانتفاضة الكبرى، في الضفة والقطاع، كأقلّية تعيش داخل المجتمع الاسرائيلي، وربما كان هذا مفهوماً، لكنّه لم يكن مقبولاً! أما اليوم، فإن اسرائيل ما زالت تصرّ على نظرتها وموقفها، وهو أمر غير مفهوم وغير مقبول طبعاً، حتى أن معظم دول العالم تتماهى مع الفهم الإسرائيلي، ودليل ذلك، أن احتجاج تلك الدول لإسرائيل، ينصبّ على «مبالغتها» في استخدام العنف ضد الفلسطينيين، وليس – للأسف – مُنصبّاً على استخدام العنف نفسه ضد شعب آخر، أي أنّ تلك الدول تحتجّ ضد «الإفراط» في القمع الواقع على مجموعة من الناس، ولا تطالب بوقف ذلك العدوان ضد شعب آخر، له حقوق تاريخية أقرتها الشرائع والمحافل الدولية .

إنني أتفهم، جيداً، ملاحقة السلطة الوطنية الفلسطينية للعيّار الامريكي والدولي والاسرائيلي.. إلى باب الدار! وافهم جيداً ضرورة حضور القيادة الفلسطينية في كل محفل ومؤتمر ولقاء .. حتى تؤكد موقفها كاملاً، وتطرح مطالبها المشروعة .. لكنني لم أتبيّن بعد أسباب غياب عوامل الضبط الفلسطينية، التي ينبغي أن تتحرك بسرعة، وتشمل كل الظواهر، وتحيط بكل ما يدور في الشارع وعلى المداخل، وعلى خطوط المجابهة والدم، وتنهض بأذرعها الإعلامية، وتستثير كل القوى التي ما زالت شبه نائمة

.

فالسلطة تعني السيادة، وأوّل شروط السيادة هو احتكار ممارسة القوة والسيطرة على مراكز القوة، وضبطها، وإطلاقها حسب استراتيجيات وخطط وضبط، يصل إلى حدّ تفعيلها أو تعطيلها بوساطة جهاز التحكم عن بعد .
ولعله من الطبيعي، أن يصاحب أي فعل، بعض الخطأ، لكن مسؤولية أولي الأمر، ومبرر وجودهم، هو عدم السماح لاتساع هامش الخطأ، بل محاصرته، وعلاج اسبابه، على طريق تمتين النقاط الإيجابية، والظواهر الصحية، والقضاء المبرم على كل ما هو محبط وسلبي . وهنا أسجل احتجاجي على أهم هذه السلبيات، ورؤيتي لتجاوزها:–

تأهيل السلاح ... أولاً:–

الانتماء الباسل، والاعتقاد الراسخ، والجسارة الفذّة، هي ما يدفع الشبّان الفلسطينيين، لتوظيف أسلحتهم الأوتوماتيكية الخفيفة، لمناطحة المستوطنات المدججة بالسواتر الغليظة، والمدافع المُهلكة، كردّ فعل طبيعي، على ما تقترفه دولة الاحتلال من قتل سافر، لم تصل مذبحة، في التاريخ، ببشاعتها، إلى ما وصل إليه هذا الفتك الاحتلالي المتواصل، الأمر الذي يوقع هذا العدد الكبير والعزيز من الشهداء والجرحى، والذين تبرز جثامينهم، ما تفعله القنابل والصواريخ والمدافع، من تمثيل ممضّ ومرعب فيها، وصلت، في أغلب الأحيان، إلى تقطيع الجسد إلى أشلاء، أو تهشيم الرأس، أو طحن الأطراف، أو تنخيل الصدر، أو تمزيق الجذع حتى الذوبان.
وهنا تبرز مسألة ينبغي التوقف أمامها مليّاً، وهي مدى إحاطة هؤلاء الشبّان الأبطال بالمهنيّة، والتدريب الكافي، والتأهيل اللازم! بمعنى، أنه ينبغي على كل مَنْ يحمل السلاح، أن يكون قادراً، تمام القدرة، ومؤهلاً بما يكفي، وعالماً بأحوال السلاح وكيفية استخدامه، زمانياً، ومكانياً، ومدركاً لما يتمتع به عدوه من أسلحة، وماهية قدراتها وإمكانياتها، وأن يكون مُلّماً بأشكال حرب العصابات وحرب الشوارع... وما إلى ذلك، حتى يكون سلاحه الرشيق نافذاً وذا فائدة، وتكون كل رصاصة بمكانها، وحتى لا يُمسي إطلاق الرصاص الليلي، من بين البيوت، على المواقع الاحتلالية، أشبه ما يكون بـ«الطخطخة العشائرية» أو «الاستعراض» أو «طخّ الأعراس»، وتكون النتيجة وقوع عدد جديد غالٍ من الجثث، ومزق اللحم، والأطراف المنخورة، وبدون فائدة تذكر!!
وأعتقد أن ثمة مسؤولية كبيرة ومباشرة، تتحملها الأجهزة المسؤولة، والمؤسسات المعنيّة، والتنظيمات والفصائل جميعها، في هذا الشأن، بحيث ينبغي أن تضع، وبشكل ملزم، الضوابط المانعة، أمام الانفعال والحماس، الذي لا يكفي في مثل هذه الحالات، على طريق وضع الأطر والخطط اللازمة، لتوظيف الأسلحة، بعلميّة ووعي ومسؤولية وإدراك، وأن لا يسمح، لأيّ كان، بالتمنطق بالسلاح، وإطلاق الرصاص على عواهنه، دون حساب دقيق، وفي المكان والزمان المناسبين.

إن رصاصة واحدة، يقف خلفها فلسطيني ذو خبرة ودربة، يطلقها، مستعيناً بتقنيات السلاح المعاصر والمتطور، في الوقت المناسب، ومن الزاوية المحددة، ستكون، بالتأكيد، أفضل من إطلاق مليون رصاصة مجانية في الهواء!

وربما، يكون مناسباً، هنا، أن نشير إلى أهمية عقد دورات تأهيل وتدريب، لجيل معين، من كل أبناء شعبنا، حتى يتم تكريس السلاح الفاعل والمسؤول، واجهةً مساندة، تؤدي دورها، في هذه الحرب الطاحنة، التي تديرها الدولة العبرية ضدنا، والتي، ربما، تتصاعد، وتدخل في دوّامات جديدة، لن ينفع حينها، إلاّ السلاح ... والسلاح فقط.

سرقة الجنازات...ثانياً:-

عفواً لقسوة العنوان، وبعد،

فثمة ريبة في أمر ما يحدث!؟ حيث أن المسألة تبدو، وكأنها توقفت عند حدود تصنيف الشهيد وانتمائه الحزبي، فترى الفصائل والأحزاب والتنظيمات، تتسابق في ماراثون الإدّعاء، أن الذي سقط مضرّجاً بدمه، هو من هذا الفصيل، وليس من ذاك التنظيم... ويواكب ذلك أن الفصيل هذا، يسرع في توزيع أعلامه وراياته ويافطاته على المُشيّعين، ليوحي بأن الشهيد عنصر من عناصره!! ولا دخل لباقي التنظيمات فيه، ولا يحق لهم مقاسمته دمه!

هل ثمة قسوة أكثر من هذه؟ وخصوصاً أن الكثير من الشهداء، لم يكونوا، أصلاً، أعضاء، في أي تنظيم أو جبهة أو حركة، ثم أن الشهيد يؤدي واجبه المقدس، مدفوعاً بعقيدته وضميره وغضبه، ولم يستشهد من أجل «عيون» هذا التنظيم، أو ذاك الحزب، أو تلك الحركة، أو هذي الجبهة!!

فلماذا تصرّ هذه التنظيمات، على «تلوين» الشهداء بألوانها؟ ولماذا يلحفون في «تقزيم» الشهداء و«حشرهم» في خانات التنافس الحزبي؟ ولماذا يقتسمون لحم الموت، وحفظها في ثلاجات مكاتبهم الفصائلية؟

هل هناك إساءة أكثر من هذه للشهداء؟

بل إن بعض الفصائل أعدت مُلْصقاً ضمّ أكثر من ثمانين شهيداً، وكان المُلصَق معنوّناً بـ«شهدائنا»، مما يعني أن المئة والتسعين شهيداً الآخرين، ليسوا شهداء، من وجهة نظر ذاك الفصيل!! وإلاّ ما معنى ذلك؟ ولماذا تقسيم هذا «الميراث»، وفي هذه الظروف، التي نحن أحوج ما نكون فيها، إلى الوحدة الوطنية؟!

حتى أن الكثير من الشهداء، وقبل أن يواروا الثرى، تنازعتهم الفصائل، حيث نرى أن التنظيم «الفلاني» نعاهم، والتنظيم «العلاني» تبنّاهم؟ فإلى متى تستمر هذه «المسرحية» المفتعلة، الهابطة، المسيئة، وثقيلة الظلّ؟

أيها الأخوة، أيها الرفاق، في كل الفصائل والتنظيمات والحركات والأحزاب والجبهات:

إن الشهداء أكرم منّا ومنكم جميعاً، والشهداء أكبر من كل الألوان والألسنة والادّعاءات، والشهداء فوق الجميع، وأعلى من سكاكين «اقتسام» الكعكة السامّة . والشهداء ورثة الأنبياء لا تجوز ملكيتهم، أو وضعهم في «جيب» هذا أو ذاك، والشهداء في قبورهم، يجوحون ويبكون ألماً، كلّما رأوا هذا المشهد المكرور

الممجوج الذي يشظّي أجسادهم، ويصبغ دمهم بلون باهت كريه، فاتقوا الله في أنفسكم، وفي الناس البسطاء، وفي الشهداء الأكرمين.

تمجيد الموت .. ثالثاً:-

ثمة خطابٌ، كالطوفان، لا يجرؤ أحد، على الوقوف بوجهه، وهو خطاب تمجيد الموت! وبالتأكيد فنحن جميعنا مع تمجيد الشهادة لشحذ الأرواح، التي جعلت ليل المحتلين جحيماً، ونهارهم رعباً..، وربما لا يختلف اثنان على أن الموت البطولي، هو الثمن الذي لا بُدّ من تقديمه، حتى نقطع جسر الهلاك ... ونصل إلى برّ الاستقلال والكرامة. لكنّنا نبالغ، ونتساهل مع الموت، وكأنه شيء «طبيعي»، وأن سقوط عدد كبير من الشهداء، مسألة مفروغ منها، و«عادية» جداً. وهنا أعترض، وأرفع صوتي ضد هذه التعبئة غير المحسوبة، والانفعالية الغليظة، التي تجعل الشهادة أقرب ما تكون إلى الموت المجانيّ، لأنه بإمكاننا ترشيده، والإفادة منه أكثر!! بمعنى أنّه إذا كان لا بُدّ من الموت، فيجب أن نموت، شرط أن يكون موتنا باهظاً لِمَنْ يقتلوننا، لأن الهدف ليس أن نموت، بالطبع، بقدر ما نحقق أهدافنا الوطنية والسياسية ... وفي درب تحقيق الأهداف، لا بُدّ من سقوط الشهداء والجرحى، ودفع الثمن الباهظ المطلوب.
والبطولة ليست في أن «نموت» فحَسب، بل إن جوهر البطولة يتمثّل في أن نوقع موتى كثيرين في صفوف العدو، حتى نضغط، بكل ما أوتينا من قوة، على عصب نخاعه الشوكي، لعله يستفيق، ويستجيب لنداء الشرعية الدولية والسلام العادل. ولأن البطولة، أيضاً، تتركّز في التقليل، ما أمكن، من خسائرنا البشرية، ومقدّراتنا وإنجازاتنا.
وينبغي، هنا، أن ندرك جيداً أننا «لا نُقدّم» الشهداء، بل إننا نخسرهم، ويجب أن نحسّ بهذه الخسارة المفجعة والقاسية والمؤلمة جداً، لأن الفرح بالشهيد لا يعني أكثر من بهجة الزفاف الصعب، الواجب الوجود، لكنها ليست فرحة المازوخيين، الذين ينتشون بالسياط، أو فرحة المهزومين الذين يطيب لهم أن يجلدوا أنفسهم، ويمزقوا ثيابهم للتعبير عن عقدة الاضطهاد أو التسليم، ورفع الراية البيضاء ... لأن فلسطين لم تعتد إلاّ أن ترفع ألوان الراية كاملة، وبرسوخ أكيد، فوق القمم والأسوار.
وأعتقد أن ثمة ثلاثة أسباب رئيسة لهذا الهياج المقدس، وهذا الاندفاع الخارق للشهادة، والذي يفسّر سقوط هذا العدد الكبير من الشهداء والجرحى وهي:
أولاً: التعبئة الفلسطينية المتكررة والمتواصلة، والتي هي تعبئة عامّة، غير محددة وغير مقنّنة، والتي يتم تقديمها بغير طريقة، حتى بات «خيار» الموت، هو المُتبقي كطريق للخلاص.
ثانياً: إجراءات الاحتلال الإسرائيلي القمعية والمُذلّة والهمجية، والّتي لم تترك، بالفعل، للإنسان الفلسطيني، إلاّ طريقاً واحداً هو الانفجار، للتخلص من هذه العبودية، ومن محاولات تحطيمه وإذلاله واستلابه.
ثالثاً: الردّ الدموي لآلة الفتك الاحتلالي، التي تحصد الأرواح، بدم بارد، وتقصف البيوت والمواطنين، بساديّة مرضية، وتطلق عنان المدافع والرشاشات العمياء، في وجه الشعب الأعزل.

وبقدر ما يزداد قتلاهم، بقدر ما نقترب من الدولة والقدس والعودة، وليس بعدد شهدائنا، فقط، نحقق ذلك!

غياب المثقف .. رابعاً:-

في الانتفاضة الكبرى كان المثقفون يقومون بدورين، الأول، بصفتهم مواطنين، والثاني، كونهم مثقفين، وقد نجحوا في دورهم نجاحاً حسدهم الكثيرون عليه، حيث تم اعتقال ثلاثة وستين كاتباً وتشكيلياً ومسرحياً.. حيث لم تكن الكلمة سلاحاً فحسب، بقدر ما كانت مؤرّخاً وشاحذاً وصوتاً يرجرج السكون أنّى كان! وأشهد، وأنا في المعتقل أن هؤلاء المثقفين كانوا طليعة القيادة الميدانية في المعتقل، حتى أنهم بعثوا انتفاضة جديدة في عتمات السجون .
واليوم، قليل هم المثقفون والأدباء والأكاديميون، والتشكيليون والمسرحيون وغيرهم من عائلة الفكر والابداع والثقافة، الذين أثبتوا حضوراً، خلال هذه الانتفاضة!.
وربما يقول قائل: إن دور المثقف غير آني أو مباشر، حتى يخرج من حمأة الروح إلى بياض الورق أو المنصّة!
لكننا، نعني، هنا، الدور المباشر الذي ينبغي أن يكون، على صعيد المشاركة الوجدانية والمعنوية «للناس»، في أحزانهم وشجونهم وجراحهم الثقيلة، أولاً! وعلى صعيد الكتابة التحريضية أو الفعل الفني الشاحذ، الذي يدفع القلب للانفجار، في وجه العتمة والمقاصل، ثانياً .
وصحيح أن أدوات المثقف وخطابه وآلياته، تختلف عن باقي ما لخلق الله، لكن غياب الكثير من المثقفين، وانزواءهم أو انفضاضهم .. يشير إلى أن هؤلاء قد هبطوا مرتين، الأولى: في التعالي عن المشاركة مع عيال الله من ابناء شعبنا البسطاء المناضلين، والثانية: في عدم القدرة على اجتراح أشكال ثقافية وفنية مناسبة، لتكون دعامة للمنتفضين، ورافعة لنشيد المتاريس وأغاني الجنازات، ويداً للغصون التي تمزّعها انياب الجرافات وجيش المستوطنين الفاشي .
وكل هذا، لا ينسينا تلك المجموعات الثقافية والفنية التي هبّت للمشاركة، بطريقتها، غير مرة، لكنها أُحبطت، على ما يبدو لأسباب عدة، أهمها أن جزءاً كبيراً، من عائلتنا الثقافية، مجروحة بالنرجسية أو التضخم أو اللا ثقة..!!
ان كتابة مقال هنا أو هناك، أو صورة قلمية عميقة، أو السير في مهابة الجنازات أو عيادة الجرحى، أو تقديم العزاء الجليل، أو إقامة حفل فني ثقافي غنائي أو تشكيلي .. هو ما يراكم الفعل الثقافي، الذي هو الجذر الاكثر اصالة وعمقاً، والتي تنهض عليه الانتفاضات والثورات، ذلك لأن الثقافة ليست اداة مقاومة فحسب، بل هي الشاحن والمؤرّخ، والماء الذي بدونه تجف العروق .. وتموت الحياة .
رغم ان المطلوب، هو أكثر من ذلك بكثير! لكن ما نتمناه هو الحدّ الأدنى على طريق لملمة العائلة الثقافية الفلسطينية، وانتظامها بخيط ذهبي متين، على أرض استراتيجية راسخة وواعية، تقوم بها المؤسسات جميعها، سريعاً .. وبدون استثناء .

* * *

وبالتأكيد لا يختلف اثنان، على أن شعبنا، قد خرج، للمرة الألف، في انتفاضة جديدة، للتعبير عن رغبة حاسمة، جوهرها الخلاص من الاحتلال والمستعمرين، وما يمثله هذا الاستلاب، من موات ومهانة وعدميّة! غير أن ثمة أسباباً جوهرية أخرى وقفت بحزم، وساهمت مباشرة، في دفع الناس للإنتفاض، لعل أهمها، هنا، كان التعبير عن رفض «الخطأ» فينا، والمناداة بتأسيس مجتمع نموذجي، لا تشوبه أمراض الحكم العشائري، أو النظام الشمولي.

وربما، أهم ما تحفره الانتفاضة، في وعينا، إضافة إلى الإنجازات الوطنية والسياسية ... قدرة الانتفاضة على تأسيس الوعي النقدي، كأرضيّة خصبة للتعددية والحوار والتأصيل. ومن هنا فإن المطلوب، أولاً، وقبل كل شيء –عدا الإفادة السياسية وقطف ثمار الانتفاضة، على المستوى السيادي، والتخلّص من الاحتلال، وإعلان الدولة والعاصمة والعودة– هو أن تكون قيم الانتفاضة وروحها، والمبادئ التي كرّستها، المواد التي تشكّل دستور الدولة الفلسطينية القادمة، ونصّ النظام الذي سيحكم هذه الدولة. بمعنى أن لا تكون هذه القيم والروح طارئة أو موسمية، أي أن تظل الوحدة الوطنية المجسّمة، الآن، قائمة، وتنهض وتتواصل على قواعد يتم تثبيتها وتمتينها وتقنينها، وكذلك استنهاض القوى الكامنة في المواطن والتجمعّات والمؤسسات، وإبقاء هذه العلاقة المضيئة بين السلطة – النظام والشارع الفلسطيني، جنباً إلى جنب التكافل الاجتماعي، وتحديد الأولويات، ووضوح الهدف والبرنامج... وفوق كل ذلك، الحرص على مساحة النقد الشجاع المسؤول، وتصحيح المسيرة.

إنني أعني، بالتأكيد، أن تظل الانتفاضة، كفعل للتجاوز والإبداع، فعلاً دائماً، وهاجساً لا ينبتّ، وهدفاً بحدّ ذاته، يتخلّص، من كل المهابط وعوامل التثبيط، ويسعى لاستفزاز روح الاشتعال والنماء والعافية، وعلى كل المستويات. أي أن يكون مع مطلع كل نهار جديد، روح جديدة أو انتفاضة جديدة، يتجدد عزمها، وتصل أمواجها، ساعة إثر أخرى، إلى كل بناءات مجتمعنا، لتكون الانتفاضة، حقاً، فعل تغيير شامل، لا يتوقف.

والفعل الشامل، يقضي بعدم تمجيد صورة، أو بُعد واحد للانتفاضة، مثلما يعني عدم الركون إلى شكل واحد للتغيير، لأن الاقتصار على شكل أو كيفية واًحدة، يًتنافي مع جدلية البناء والنضال والتجاوز.

ومن الطبيعي، أن تبرز بعض القوى والمصالح، التي ستشد الشمس إلى غروبها قبل أن تشرق، مما يؤكد حيوية وجدوى الوحدة، واستنهاض القوى الكامنة، والنقد الدائم، حتى لا تحقق الانتفاضة سوى الشرط السياسي الآني، والمطلب المرحلي، الذي سينهار، إذا لم يتم تدعيمه بمفاهيم الانتفاضة وقيمها وروحها وأخلاقها.

ومن الطبيعي، أيضاً، أن نتناول كل ذلك، بأدوات ولغة جديدة، وبشرط أن تصل رياح الانتفاضة إلى كل الجهات، لتصيب مباشرة كل مناحي حياتنا، من ألفها إلى يائها ... وبدون استثناء!

* * *

ومع دخول الانتفاضة شهرها الثالث، هَلَّ شهر رمضان المبارك، لتعود حرقة القلب من جديد، وتبدأ «الحزينات» بتخيّل الزوج أو الولد الراحل، .. كيف كان في رمضان الماضي جالساً، بكامل بهائه وحضوره، وماذا كان يحبّ من الطعام، وكيف كان يشرب أو يُصلّي، أو يستيقظ للسحور والتسبيح!!؟
يجيء رمضان هذا العام، والحزن يشحذ سكاكينه الناعمة، على أكباد الأمهات والزوجات، وخصوصاً أن الناس انفضّوا – بعد انقضاء أيام العزاء – عنهن .. وأصبحت الليالي ثقيلة ذابحة!! فهل سيطفئ الدمعُ والتفجّعُ سعيرَ الأضلاع، والخفقان السريع المخذول؟!
كيف ستفطر تلك المرأة التي هدّها موت زوجها، الذي تطلع المآذن من وجهه عند كل مغرب؟ ومَنْ الذي ستكشف الوالدةُ غطاءه قبل السحور، لتفزعَ من فراغ الأرض؟ وأين ستتجه عيون الصغار حول المائدة؟
إشربوا دموعكم الكاوية أيها الفلسطينيون المذبوحون من جذوعكم!
اكسري هواء الأيام المسمومة، يا أمي المخنوقة بحسرتك المتضوّرة!
لوّحي بمنديلك المخضلّ بدمعٍ سيّال هتون أيتها المرأة، التي مزعوا قلبها بسواطير العذاب .
أيها الصغار! إصرخوا ملء الكَون حتى تردّ السماء على صراخكم الصغير المتأجج، وحتى يعود الآباء غير منقوصين، ليرتبوا على ظهوركم، ويمسّدوا شعركم، ويطعموكم بأيديهم المكتملة! وأنت يا أمي! أُحضني أبناءك حتى يكون للصغير أبٌ، يدخل بخشونته العذبة بوابة الدار، ويسأل عن موعدَ الافطار ويقظة المدفع في الليل!!
وأنتَ يا رمضان! لم تكن قاسياً، ولم نعهدك إلاّ شهر هدى ورحمة وبركة، فارفع وطأة لحظاتك عن صدور الأيتام والزوجات الصغيرات والأمهات ...
وتظل عينا الثاكل أو الأرملة الشابة رُمّانتين من الدمع، ستظلان تسحّان .. كلما نكأ أحد ذكر الراحل، أو حلّت مناسبة، أو جاء عيد، أو نادى طفلٌ على أسمه، دون أن يعي انه مات ... ولن يعودَ!

* * *

وفي الانتفاضة الأولى، لم تكن حركة المقاومة الاسلامية «حماس» قد ظهرت تماماً، بل كانت برعماً غضّاً، يحاول أن يتطاول ويظهر، غير أن بيانات القيادة الوطنية الموحدة، لم يمهرها اسم حماس مع اسماء الفصائل الوطنية، التي كانت تقف خلف تلك البيانات،وتقود الفعّاليات، وتسيطر على لجان الأحياء والقرى .
أتذكر ذلك، اليوم، وقد مرّت علينا، قبل رمضان بأسبوع واحد، ذكرى استشهاد شيخ المجاهدين عز الدين القسّام، الذين اتخذت حركة حماس، اسمه العالي الشريف لتطلقه على جناحها العسكري .
والشيء بالشيء يذكر، كما يقولون! فالشيخ المجاهد عز الدين القسام الذي قضى في وادي السرّيس ببلدة يعبد، جنوب جنين عام 1935، بعد معركة شرسة مع قوات الانتداب البريطاني، شهدها الوادي،

تمرّ ذكراه لتكشف الستار من جديد، عن حياة واحد من أهم وأبرز قادة الثورة الفلسطينية، في ارهاصاتها الأولى، حتى اننا نعتبره ابا للثورة المسلحة، ووالدا شرعيا لكل ما توالد في فلسطين، من ثورات وانتفاضات .. حتى الساعة، للاعتبارات والاسباب التالية:

اولاً: استطاع القسّام أن يكسر فكرة الاقليمية الوطنية مبكرا، على طريق تأكيد دعوته، التي تقف على مفهوم «الأمة الواحدة»، مما يفسر اشتراكه في محاربة الفرنسيين في سوريا، والانتداب البريطاني والعصابات الصهيونية في فلسطين، بعزيمة وبسالة .

ثانياً: أنزل شيخُنا الجليل فكرةَ الجهاد من النص الغيبي العام، إلى ارض الممارسة والواقع، ولم يكتف بالدعوة اللفظية، بقدر ما جعل الجهاد دعوة ملموسة، تعطي أُكلها، مما يشكل تحدياً للجماعات الإسلامية التي تدعو للجهاد، علّها تسبر غور تجربة هذا الداعية العملي .

ثالثا: قدّم القسّام الدعوة الاسلامية بشكل معاصر، حيوي ومرن، آخذا بعين الاعتبار كل المعطيات المعاصرة والاحداثيات المعيشة، واستطاع هو ورفاقه والمجاهدون معه، أن يصلوا الى كل فئات المجتمع، حتى أصبحت دعوته مظلة واسعة، انضوت تحتها جماعات اخرى، أي لم يسم ثورته بأفق ضيق، ولم يكن جميع مَنْ سار معه من المتعبّدين .

رابعاً: تميزت حركة القسّام بقوة التنظيم والعمل، حيث وضعت شروطاً ومواصفات للثورة والثائر، حيث لم يقبل، في صفوفه، إلاّ كل مَنْ خضع للتجربة والمراقبة، ضمن اطار تنظيمي مُسيّس، ولديه قدرة على التحليل، ووجهة بوصلته محددة، نحو العدو المركزي .

ثم ان القسّام في التجائه للريف الفلسطيني، دون اهماله للمدينة، أعطى طابعاً شعبياً واسعاً لحركته الثورية .

خامساً: لم تكن ثقافة القسّام الدينية العميقة، مبنية على الخرافات والأوهام، بل كانت لديه قدرة على الاجتهاد، مثلما لديه خبرة ميدانية صاحبته منذ جهاده الأول ضد الفرنسيين في سوريا، كما انه كان من دعاة الوحدة وممارسيها، ولم تكن حركته منكفئة على مجموعة محددة، أو منزوية في مربع ذي لون ما .. بل وضع ذراعه في سواعد القوى الاخرى، التي كانت تناطح الانتداب والعصابات .

ان استشهاد عز الدين القسّام لم يوقف ثورته، بقدر ما كان استشهاده سبباً آخر، لتفجير الثورة وتصاعدها حتى كانت ذروتها تتمثل في ثورة 1936 .

لقد كان القسّام يزاوج بين ما يقوله من على المنبر، وبين ما يفعله في الوديان والجبال .. وربما يكون هذا، نداءً واضحاً لكل القوى الاسلامية المترامية من المحيط إلى الخليج .

ولعل ذكر الشيخ المجاهد الشهيد عز الدين القسام، يأخذنا إلى ما قد نُسمّيه بـ «النموذج»!

فكلّما امتلأت جرّة التاريخ بالعندم وحبّات الجمر، فاضت فلسطين بالزنابق الحمراء، والمواقد الماسية .

ولعلّ التاريخ في توقّفه أمام نماذج محددة، إنما يؤكد تميّز واستثنائية ومهابة هذا النموذج وغير عاديته، وربما ليكون مثالاً يحتذى، للناس أجمعين، وعلى مرّ التاريخ .

ولم يفلت منهاج مدرسي واحد من «لعبة النموذج» حتى يتم تأصيل مدارك الأطفال، وتعبئة صدور الأجيال الطالعة، لتكون تلك النماذج قدوتها في الحياة .

وفي حالتنا العربية، ثمة الكثير من الأسماء الحُسنى التي شغلت الدنيا والناس، وكانت، بالفعل، شمساً أخرى في نهار العرب والمسلمين، أو نجمة كبيرة وهّاجة في ليل أمتنا الممتدة بعيداً في التاريخ، ولكم تغنّينا بهذه النماذج التي حرست أحلامنا، وأضاءت جنبات ليالينا بأفعالها المحمودة، واختراقها للرتابة أو المتوقع .

ومن هذه النماذج، على سبيل المثال، «أبو ذؤيب الهذلي» الذي فقد أبناءه الخمسة الذين كانوا يجاهدون في ركائب الغزوات الرسولية، وكذلك «الخنساء» التي فقدت الولد والشقيق، وغيرهما كجعفر الطيار أو حنظلة الغسيل الذي لاقى ربه مجاهداً شهيداً، بعد ساعات من زواجه، حتى لم يمهله منادي الجهاد، ليغتسل من ماء الشهوة..

وأكاد، دون مبالغة، أن أجد معادلاً موضوعياً في فلسطين لكل تلك النماذج، حتى أنّ النماذج الأممية التي وقف العالم مشدوهاً أمام صمودها، نجد عشرات مثلها، هنا في فلسطين، وأعني، بالطبع، البطل الأسطوري صديق شعبنا نلسون منديلا، أو المناضلَ الأممي تشي جيفارا ...

وقد لا نجد عنتاً أو تعباً في إيجاد «أبا ذؤيب الهذلي» الفلسطيني أو «الخنساء» الفلسطينية، أو جعفر الطيار الفلسطيني، أو مانديلا الفلسطيني، أو جيفارا، أو جياب أو غيرهم الكثير . بل قد نجد أكثر من عشر خنساوات في فلسطين، وأكثر من عشرين أبي ذؤيب وأكثر من ألف جعفر، هنا، على هذه الأرض، مثلما نجد في كل قرية مانديلا .. لكنّ العالم لا يرى إلاّ ما يريد، منطلقاً من مصالحه، ولا يرغب في أن يعترف بأن فلسطين قادرة دائماً على اجتراح المعجزات وولادة الخارقين .

وثمة مسؤولية هائلة على أكتافنا، تبدأ من تأصيل تاريخنا النضالي، مروراً بحفظ هذه الذاكرة المطهمة بالدم والعرق والقيود، وانتهاء بإعلاء هذه النماذج وتثبيتها في أدبيّاتنا وأغانينا ومنهاجنا المدرسي ومساقاتنا الجامعية، لا لكي نتمايز عن الناس، ونقلب شفتينا، غروراً بما لدينا من بطولات! ولكن ليعلم التاريخ كم كان مُبهضاً وظالماً هذا الاحتلال، الذي أفاد من كل أشكال القمع عبر التاريخ، وأعاد إنتاجها على لحمنا وروحنا، ونوافذنا التي نحاول أن نُبقيها مفتوحة لنرى الشمس الآتية .. لا محالة .

* * *

الرعب المقلوب وموقف الأطراف

في مرأى الدم ما يوحي لكراهية الكلام! رغم أن أقواس الزنابق هذه، تنهض، منذ قرن على جذر الكلام المسؤول المتعالي . لكن الرعب الذي انقلب ضدنا، هو ما يبيح لنا أن ندخل في عجين الحروف، لعلها تُذكِّر أو تفيد، إنْ نفعت المؤمنين الذكرى!

ولنبدأ من الطرقات التي تربط بين محافظات فلسطين، التي كانت آمنةً، نذرعها .. ونذهب ونعود، دون أن نخشى شيئاً! كان هذا خلال سنيّ الانتفاضة الأولى، التي ينبغي أن نسمّيها الكبرى أو الأمّ . وكان

المستوطنون المتطرفون، الذين احتلوا ذُرى الجبال، وعبّروا، بدقّة وبراعة، أنهم يستخلصون العبر، وأكّدوا أن فوبيا «مسّادا» ما زالت فيهم .. هؤلاء المستوطنون كانوا لا يجرؤون على المرور بمركباتَهم وسياراتهم، من تلك الطرقات . وأُذكّر مرةً أخرى، كان هذا إبّان الانتفاضة الكبرى .

أما اليوم، وخلال هذه الانتفاضة أو الحرب .. سيّان! فإن المعادلة انقلبت مئة وثمانين درجة، فأصبح المستوطنون في أمان واطمئنان .. وأصبحنا نحن الذين نرهب المرور بها أو قطعها .. حتى تكرّس السجن، وأصبح الفصل العنصري، أي إغلاق المدن والقرى، من قبل قوات الاحتلال الاسرائيلي، فصلاً أكثر وحشية وعنصريةً من أبرتهايد جنوب إفريقيا، وبذلك تفوّقت نابلس أو الخليل على سويتو .. وأصبح مانديلا الإفريقي آلافاً مؤلّفة في باستيلات الاحتلال، الذي استطاع، وبجدارة عالية، أن يُعيد إنتاج أعتى أشكال القمع، على جلودنا وأرواحنا ..

وكردّ شامل وحاسم، جاءت هذه الانتفاضة، التي نسمّيها انتفاضة الأقصى، على كل أشكال الاحتلال اليهودي .. في ظل ظروف مختلفة، عن تلك التي أحاطت بالانتفاضة السابقة العميقة والواسعة، الأمر الذي جعل الانتفاضة الجديدة هذه، بمثابة حرب استقلال فلسطينية .. تتواصل، وتبقى .. حتى يحصل الفلسطينيون على أدنى حقوقهم الوطنية المتمثلة بالدولة والسيادة والقدس عاصمة لها، وعودة اللاجئين .

وبالرغم من أن الخطابات السياسية والإعلامية الصادرة عن الفلسطينيين، اتفقت على أهداف هذه الانتفاضة، إلى حدّ ما، فإنّ احداً لم يعجم هذه الأهداف، ولم يفحص فيما إذا كانت هذه الانتفاضة تستطيع أن «تحمل» هذه الأهداف الكبيرة، نسبياً، أم لا!

بمعنى هل من الحكمة أن يبقى خطابنا مُطلقاً كمطلب رئيس لهذه الانتفاضة، ام نُحدّد أهدافاً بعينها، حتى نستطيع أن ننجزها من خلال دم وعرق وتضحيات هذه الانتفاضة، مثل الاستيطان أو إعلان الدولة أو القدس أو اللاجئين، أو حتى تنفيذ ما تم الاتفاق عليه في أوسلو وما تبعها من اتفاقيات؟!

وثمة اتفاق معلن، بين كل الفصائل الفلسطينية، الوطنية والإسلامية، على مواصلة هذه الانتفاضة، مما فسح المجال لهذا التجلّي الملموس للوحدة الوطنية،،، لكننا نلمس مسألتين: الأولى أن بعض الفصائل لم تحسم أمرها كلّياً للدخول في أتون هذه الانتفاضة، إلاّ بمقدار، تبريراً من هذه الفصائل الإسلامية، بالتحديد، أن هذه الانتفاضة جاءت لتحسين شروط المفاوضات، وليس لكنس الاحتلال كُلّياً . ولعل ما برر موقف هذه الفصائل هو عدم التصريح الجازم من قبل السلطة الوطنية بأن هذه الانتفاضة ستتواصل حتى القدس والدولة والاستقلال وعودة اللاجئين، الأمر الذي أوضح أن ثمة موقفين داخل السلطة: الأول من أتباع أن الانتفاضة أدّت رسالتها وحسّنت شروط تفاوضنا، والثاني أن الانتفاضة يجب أن تتواصل حتى النهاية، أي حتى الاستقلال والقدس والعودة . أما المسألة الثانية فهي غياب السلطة نسبياً، عن ضبط بعض الأمور والسيطرة على كل الأذرع والإحداثيات .

ولعل أحداث الانتفاضة هذه كشفت ضعف ثلاثة عناوين في الساحة الفلسطينية، أوّلها وزارات السلطة، وثانيها الاقتصاد الوطني، وثالثها المعارضة الفلسطينية، التي لم تُثبت أن لديها استراتيجية كاملة، موازية لاستراتيجية، واجبة الوجود، لدى السلطة، وتحمل الإجابات المطلوبة على كل الأسئلة .

وهنا، لا أريد أن أشير إلى غياب بعض الاجهزة الأمنية، إلى حدّ كبير، وخصوصاً أن حضورها الفاعل مطلوب الآن، أكثر من أي وقت مضى، حتى تقوم بحراسة الكوادر الفلسطينية التي يتم تصفيتها، وكذلك باعتقال الأصابع الخفية المزروعة للتخريب في صفوفنا، وكذلك دفع دماء جديدة لإنعاش وتطوير العمليات الفدائية النوعية، هنا وهناك!
وما يبرر غيابها، ربما، هو أنها أجهزة تم بناؤها لتكون أجهزة أمن في ظرف سلام، وليس لظروف الحرب .
أما غياب الإعلام، فهذا ما يتحدث عنه الكثيرون .. ولن أخوض في مياهه الواسعة! بالرغم من أن هذا الغياب يؤدي إلى سيطرة موقف الآخر إقليمياً وعالمياً، ويشيع الشائعات السوداء في صفوفنا، ويشكل خطورة بالغة كحرب نفسية مُسلّطة علينا، في ظل غياب المعلومة الصحيحة والمستندة على المعطيات والوقائع، وبلسان مبين .
ولعل حركة «فتح»، وبلا مبالغة، هي التي تقود هذه الانتفاضة، ومن خلفها كل أبناء شعبنا وأطره وقواه ..! رغم ان الاحتلال الإسرائيلي حاول أن يضرب هذه الحركة، من خلال الشائعات، وتصوير الأمور عكس ما هي عليه، حيث ادّعت الدولة العبرية، وعبر مسؤوليها وأجهزتها الإعلامية، أن «التنظيم» هو الذي يقود الانتفاضة .. بمعنى أن السلطة الوطنية وحركة فتح، بريئان من هذا «التنظيم» الذي يجب ضربه!! والذي يشكّل خطراً، ليس على إسرائيل فحسب، بل وعلى حركة فتح نفسها .. من خلال «الإنشقاق»! و«عدم الانضباط»! و«الخروج على تعاليم القيادة الفلسطينية»!!!
وللحقيقة فإن هناك ثلاث قراءات، داخل حركة «فتح» لهذه الانتفاضة: القراءة الأولى تتمثل في الرأي، سالف الذكر، الذي يقول إن الانتفاضة أدّت دورها، وحسّنت شروطنا في التفاوض، ويجب أن تتوقف، ومبرر أصحاب هذه القراءة هو خوفهم على «السلطة الوطنية»، وحتى لا تقع «شيشان جديدة» إذا ما تفاقمت الأمور . أما القراءة الثانية فإنها تتمثل في مراقبة ما يجري، ومتابعة التفاعلات .. واتّباع الخط الذي سينتصر ويغلب، دون أن يعترض أصحاب هذه القراءة على ما يجري أو يساندوه . وتبقى القراءة الثالثة المتمثلة، في دعم الانتفاضة وتطويرها، حتى تحقق كامل أهدافها، من الدولة والاستقلال، حتى القدس عاصمةً وعودة اللاجئين ..!
هذه القراءات، وما جاء قبلها من قراءة، هو ما يفسر؛ لماذا ما زالت الأعمال النوعية ضد قوات الاحتلال أعمالاً فردية! ولماذا نرى ثغرات هناك، ونكوصاً هناك..!!
ولعل السلطة الوطنية الفلسطينية، في وضع، أقل ما يوصف به، بأنه مضغوط! فالدول العربية والإسلامية، ورغم مؤتمري القمة، فإنها لم تقدّم أيّ دعم اقتصادي أو مالي أو سياسي أو جماهيري يذكر لتقوية السلطة ومدّها بأسباب الاندفاع والتقدم، بل إن الضغوطات السياسية التي تُمارس على السلطة، بهدف عودتها إلى طاولة المفاوضات، لم تتوقف! ناهيك عن ضغوطات أوروبا وباقي «الأصدقاء» في العالم!
لهذا، نجد السلطة الوطنية، مضطرة، لحضور أي اجتماع أو لقاء أو مؤتمر، حتى تؤكد، للمرة المليون، أنها لا تريد القمر أو المستحيل، بل حماية شعبها، ودرء الموت عنه، وتطبيق الاتفاقيات، وتسوية تاريخية

مقبولة!
أما ما يثقل الضغوط ويزيدها على السلطة الوطنية، عدا عن الحياد العربي السلبي، هو الوضع الاقتصادي المتردّي للشعب الفلسطيني ، وانغلاق آفاق الحلّ بسبب انتقال السلطة في الولايات المتحدة الأمريكية، والإرتباك في وضع الحكومة والكنيست والانتخابات المبكّرة داخل الدولة العبريّة .. إضافة إلى أن أوروبا واليابان وروسيا وغيرها .. لم ترتق إلى مستوى تصبح فيه شريكاً يركن إليه، أو قوة يعوّل عليها .. بل أثبتت الأيام أنها دول تتبع مصالحها، أو مُستلبة لصالح وحيد القرن أمريكا!
لهذا، اعتقد أن لا خيار أمامنا، نحن الفلسطينيين، إلاّ الاستمرار في هذه الانتفاضة حتى النهاية . وعليه، ينبغي أن نحدّد خطابنا ونعلنه واضحاً لا لبس فيه، وأن نعيد توظيف أوراقنا وإطلاق قدراتنا المعطّلة واستنفارها، وأن نبحث عن آليات إضافية، ونطوّر الأساليب النافذة المؤثرة، في مواجهتنا للاحتلال وعدوانه الدموي، وأن ننتظم جميعنا في الناظم الوطني الذهبي، على قاعدة أن الجميع في مواجهة الاحتلال، سلطةً وفصائل وجماهير .. وأن نبتعد عن كل ما يثبط عزائمنا واندفاعنا المقدس، وأعني اللقاءات التي «تضرّ ولا تنفع» من اللقاءات الأمنية إلى اللقاءات التفاوضية، لا لشيء، إلا لأن لسان مسؤولي الدولة اليهودية ما فتئوا يؤكدون أن هدفهم من هذه الاجتماعات هو «وقف العنف والإرهاب» الفلسطيني، أو تقديم صورة أكثر «مكياجاً» مما تم تقديمه في كامب ديفيد مؤخراً .. ولكن على حساب تأجيل قضايا حيوية ومصيرية شديدة الخطورة والأهمية .. فهل نضيّع المزيد من الوقت فيما هو غير مفيد .. في حين تنتظرنا قضايا بحاجة إلى كل ثانية وانتباهة وتفكير نصرفها فيما هو أكثر جدوى وفائدة .. وأعني كيف نطوّر الانتفاضة .. لتبقى؟!

*   *   *

II

الأم والأب وفتى القدس الشريف

الأم

ماذا حَلمت يا امرأة ؟ هل رأيت في منامك رؤيةً تبشّر بزفاف ابنك الطفل؟ أم أن قلبَك يأكُلك عليه، حتى يعودَ من مَدرسته يحمل حقيبتَه الصغَيرة، فتضمّيه– وهوَ يعجَب لهذا الحنان المنفَعل المفاجئ– وفي عينيك صورة محمد الدرّة تمور بكامل رصاصها؟
عليك يا امرأة!! وعليك أن تردّي بالبسملة والآيات، عينَ البندقية، وتحيطي صغيرَك بالأدعية والدموع ورجاء السماء. وعليكَ أن تستيقظي من نوَمك لتصرخي في وجه الكابوس، وفزع التوقّعات الَحيّة، وأن تضعيَ السيناريو، من أوّله، حتى دفن الجثة الرانخة، واستقبالَ الجارات الباكياَت، والهتافَات القريبة المذبوحة!! وعليكِ أن تعرفي–سلفا– أن الحياة ستعود بكل رتابتها، وستعيد أجهزةُ التلفاز والفضائياتُ

أشرطةَ لقاءات المفاوضين والمفاوضات، الأحياء منها والأموات.... ورغم هذا، عليك، كلَ يوم خميس، أن تحملي ضمةَ الَورد البلدي، وتذهبي إلى الشاهد البريء، لتُلقي عليه سلامَ الرضى والرحمة، وما تبقّى من دموع.
وأعرفُ، كأني أراك– بأنك ستبكين بسخاء هادئ، كلما سقط قتيلٌ جديد، وستذهب عيناك، بلا وعي منك، إلى صورةِ ابنك المعلقة، وحدها، على الجِدار، وسيخفتُ صوتُك شيئاً فشيئا، وأنتِ تسألين بعتب، عن أُمّة العربَ، وجيوش الأعراب المنسية.
فهل أقول لك، إنَّ رؤيتَك كانت أضغاث أحلام، وها هو ابنك يطرق بابَ الدار عائداً من مدرسته!! فاستعيذي بالله من الشيطان... وإياك وأحلامَ اليقظة السيئة!

الفتى

للموت نداءٌ لا يسمعه إلا الفتيان، خصوصا أولئك الذين هجّر الاحتلالُ الفاشيُّ طفولتَهم، أو ضربَ الجنودُ آباءهم أَمام أعينهم... فكان لا بدّ من الردّ بأقصى ما يمتلكه هؤلاء. لهذا يكون موتُهم أكثرَ وسامةً من ولادتهم، مثلما يكون خروجهم من َبيوتهم دون إذن، جميلا ومبرورًا، ويجعل هذا العقوقَ آيةً للمغفرة والمباركة... كما يجعل دفاترَهم المدرسية وأشياءهم الصغيرة، أيقوناتٍ تقدّسها العائلةُ، وتمسّدها برفق، وتحرص عليها كأنها حروف الله، أو رداء نبيّ.
أيها الولدُ الذي عبأَ حقيبتَه بالحجارة، وخبَّ إلى المتراس، لتورقَ الكتبُ بالدوالي والحنّاء. أيها الفتى الذي صبّوا في رئتيه الغازَ المسيل للعار، فحرموه من هواء المراجيح، وفضاء مشاوير العصفور، ليس لك إلا أن تتعلّق بصخرة النشيد، ليقف أبوك المشروخُ بالمهانة والضعف، على أرض النموذج الراسخ، الذي ينبغي أن يعلو ولاَ ينكسر.
أيها الولد الذي حطّ على شُباكه دوريُ النار، وأعطاه سرَّ النداء. انفث هذا الأوار في كل الجهات، وامنحْ أمَك المنديلَ المقدّس، الذي يكسر نومَ الهواء، أو يوقظ البعيدين المهزومين. واكملْ حريقَ الأدغال، لينبت التفاحُ الطفلُ في البستان، دون أن يجرح الدخانُ، أو ضحكاتُ الضبع في الوديان، صفحةَ الأسيل.
ويا فتى المقلاع وأقراص الشمس والنشيد، وصلتنا هديتُكَ التي فاضت بالعندم وحبات الرز، لخطوات الزفّة الكاملة، وستحمل أختُكَ الملحَ لتنعفه في وجه الحسد، فلا بأس من الكَشْفِ... وإطلاقِ ملامحك في الطرقات، فقد عاد الدوريُ وحطّ على شُبّاك أخيك.

الأب

لماذا تداري دموعَك أمام أبنائك، والدم ينفرط ويعبئ الشاشة؟ هل تخاف من احتشاد القلب وانفجار الرمانة الساخنة؟؟ اخرج من البيت إذن! أشعل السيجارة من عقب أختها، وتمشَّ قليلا، واترك مسبحة عينيك تتساقط، واجهش قليلا، ولا تدع أحداً يراك.
ولماذا كل هذا اللوم والتعذيب لذاتك؟ ماذا كان بوسعك أن تفعل أكثر؟ كان حقّاً على الملايين خارج السياج،

أن يخجلوا من المرايا، وهم يحلقون ذقونهم، صباح كل قصف. كان واجباً على آكل مال السُحت، كانز المليارات، أن يدرك أنه ليس أكثر من أجير صفيق، يذبح الأغاني والنهار، ويهرق أعصاب البسطاء، وكرامَتهم، ليبدو نبيّاً للوحدة، أو مؤلّفاً فذاً للأنهار اليباب، أو الكلام التافه.
لا عليك أيها الرجل الذي تطحنه الجنازاتُ، ويمزع قلبَه العجز! يكفيك أنك توفر للشهداء كتفاً يحملهم لبوابات الجنّة، وتقف مع الثاكل المذهول، وتستلّ من خفة الكيس مبلغا، تضعه في يد جارك المستور، يكفيك أنك موجود بلحمك ودم أبنائك، على هذه الأرض، يكفيك أن زهرة قلبك تتوحّش أمام الدبابات، وتصبح أوراقُها سماوات من بولاد، تحاول أن تردّ الطائرات عن الصغار المفزوعين، والشيوخ المتراكضين في حيرة الظهيرة المتوترَة.
ولا عليك، فإنه يكفيك أنك تستطيع المشاركة، ولو بدمعة خرساء، تشاطر بها الناس، وهم يسيرون بهمّة باسلة إلى الغد، ولا بأس إن رأتك زوجتُك أو أبناؤك، وأنت تبكي، فهذا أول الطوفان.

جعفر الطيّار العمواسي
مرفوعة إلى مقام الشهيد محمود العمواسي

ليلٌ مطهم بشهوة النَمْر للحم الغزال. أربعةٌ وعشرونَ عاماً كانت كافيةً لأنْ ينتهي الخيالُ من لُعبَته المحمومة، مع ما تُمثّله تَلك المليَحةُ من فتْنَة وغموض. لهذا تنبّه الأقدمونَ واجترحوا الطقوسَ البهيجة حتى يخرَجَ الإنسانُ، من كَهْف العُذْريّة، إلىَ نبعِ التوالد في بَرّ الحياة.
وماذا غيرُ المَيّاس وفَمُ الياسمينَ وسوسَنُ الزرافة، ذلك الَذي كان يضجُّ برغوته، في أحلام يقظة المتحفزّ، للدخول إلى المرأة الجاهزة، المعبأة بالقُرنفل والزَنجَبيل، وعطْر الغُلالات، وحَرير موقد الماس.
أربعةٌ وَعشرونَ رَبيعاً، لمَ يصل الَصيفُ إليَها، ليبدأَ موسمُ الحَصاد، وحَتى يَرنّ خلخَالُ المنجل، ويحزّ بأناقة بالغة، ساقَ الشريان، فتسري القشعريرةُ في أوصال النُحاس. أربعةٌ وعشرون شتاءً لَم يصل الغيمُ فيها إلَى الرَعْدَة الكاويَة، التي تُهيئُ الأرضَ للهَلع اللذيَذ، ولينبتَ الصغارُ في مواكب الحقول.
أربعةٌ وعشرونَ خريَفاً كان أقساها خريفَ هذا العام! كَان فصَلاً مُختالاً، بدأ بِغوايةِ الدخوَل إلى فِضَّةِ العطْرِ وعَرَقِ الواد، وانتهى بالأَخْذَة التي كانت ضَرْبَتُها مُصَوَّحة.
الآنَ ينَهضُ جَعفرُ الطيّارُ مِن ترابِهِ العتيقِ، وقبلَ أن يُشَقْشِقَ الفجرُ، بِزَغَبِهِ، لِيُجيبَ مرّةً أُخرى لِنداءِ مُنادي الحياة!!
...لم تَكُن العروسُ المأخوذةُ، بالتَحوُّل من الضفائر، إلى انتظار الحَمْل، قد استفاقت بَعْد، مِن وَطْأَةِ هذا الدَقِّ الحريف، وهذه الجدران، التي بالكاد تنفَّسَتْ بهواء جديد.
لم تستطع اكثرَ من مدِّ يديها، برجاءٍ مكتومَ، لعلّها تعيد حَديدَ كتفه، إلى الخزانةِ المُرتَّبةِ، بعنايةِ النَفْحَةِ المُستَبشرة .
لكنّه خَرجَ، فسارَ النَمْلُ المتوحّشُ على جدرانِ قلبِها يأكُله.. كأنَّ بروميثيوس قد حضَر للتوِّ لمشاركتها

هذه التراجيديا السرمدية.
غابت الشمسُ، أو لعلَّها لم تُشْرق اليوم، بل ظَلّت في رداء البَحْر الغربي، تُمَشّطُ شَعرَها، تاركةً الشرق، لشمس الدماء التي طَلعت، للمرة الألف، من شُروقها الدائم. غابتَ الشمسُ ولم تسمعْ المرأةُ، التي اكتسبت هذه الصِفةَ، قَبل ثلاث ليال فقطَ ... كاَن أبوها يناديها: يا بنت! فَتُزْهرُ في وجهها نجمةُ الوَعْد. نادتها خالتُها الجديدةُ، أو أمُ زوجِها أو عمتُها أو حماتُها، أو نادتها كلُ هؤلاَء، لتشاركَهم طعامَ العَشاء، لكنَّ أخدودَ النَمْل، كانَ يتسعُ في قلبها الصغير.
يقولون: للمَوت نداءٌ يسمعه من سيراهُ أو يلقاه، ربّما يكونُ هذا واقعياً؟! والواقعيُ أيضاً أنكَ تحسُّ هذا النداءَ، إذا حثَّ اَلخُطى عليهم، إنْ كانوا أحباباً أو أهلاً أو قطعةً من قلوبنا.
... ما بالُكَ أيّها النَملُ الأسودُ تتركُ كلَ الأرض، وتنفذُ إلى قلبي، لتأكلَ هذا الطريَّ النابضَ، الذي لم يتحركْ إلاّ من ساعات؟ مَنْ دلَّكَ على تُفاحة ضلعي لتَقضُمَها بضراوة؟ وتُنخّلهُ حتى يصبح حفنةً من رمل؟ لماذا أجَبْتَ سُليمانَ، وهو يَخبُّ بجيشهِ، ولم تُهيّئني لهذه الصعقةً الماحقة؟ ربُما حَمَلتكَ سُورتُك في القلوب، آيات بيّنات، لكنّ قلبي صغيرٌ علَى حَمْلك. هل ماتَ وقتُ رجائك؟ وهَل سقطَ نصفُ القلب؟ أُخرجْ! لقد توقّفَ نبضي، وها هي الجَلَبَةُ خارجَ البيَت، أسمعُها تحمل لُحمةَ قلب القتيل، فافتحي يا عمتَي، يا خالتي، يا امرأةَ عمي، يا حماتي، يا كلَّ هؤلاءِ، افتحي بواباتِ الدارِ، فلقد كانَ العُرْسُ ناقصاً.

يعبد ... هلال العيد وبلال الأذان

ابتَعَدتْ عن الطريق، وبالتأكيد طريق الشرّ، فأطلقوا عليها اسم يعبد! والأرجح أنها بقيت في مكانها، مثل المعبد، فكانت يعبد! البلدة الأم لثلاثين قرية وعزبة. لم يذكرها المؤرخون حتى مطلع القرن الثالث عشر للميلاد، لأن الناصر يوسف صلاح الدين الأيوبي، غاسل الأقصى بطيب الرماح، ومحرره من الفرنجة، أقام «معسكر يعبد» ليراقب الساحل الصليبي، آنذاك، أو ما سُميّ بالممالك اللاتينية.
لهذا نستطيع أن نفهم مسألتين؛ الأولى: أن بلدة يعبد هي أول مَنْ حمل السلاح الشريف، والرشاشات في الانتفاضة الأولى، باعتباره سلاحاً توالد من صدى معارك الشيخ المجاهد عز الدين القسّام، الذي استشهد في بطن وادي السريّس في يعبد، مما يعني تواصل وإصرار هذه البلدة على الشهادة والمرابطة والجهاد، منذ صلاح الدين ومروراً بالقسّام وليس انتهاءً، بالانتفاضة الأطول في التاريخ... لأن يعبد ما زالت تقدّم، على طبق من صخر، مغسول بماء الرمّان، شهداءَها الأبرار الأزكى.
أما المسألة الثانية، تقاسم عائلات يعبد للشرف الراشدي، وأعني أن جذر عائلات يعبد، يعود لأصول النسب القرشيّ، فهذه العائلة يمتد نسبها لأبي بكر الصديق، وتلك للفاروق عمر، وهذي لعثمان، وهؤلاء لعليّ كرم الله وجهه، أو لخالد أو سعد ... مما يعمّق مجرى الشهادة والبذل والإيثار، في ضلوع أبناء يعبد وبناتها، لأنّ صلصالهم مسكون بترابيّة الصحابة الخالدين.
ويعبد التي جعلت ليل المحتلين جحيماً، تنام متيقظة، ووسادتها «جبل المُصلّى» الواقع، شرق البلدة

المطلّ على أذيال مرج بن عامر، ذلك الجبل الذي قيل: إن إبراهيم الخليل، عليه السلام، صلّى على ترابه، فكان سجّادته المرعة. مثلما يقال: إن أبا البشر آدم، عليه السلام، تلقّى من ربّه كلمات، هناك، فتاب عليه! وربما، ليس غريباً أن يختص هذا الجبل بنبات الشومر الحلو اللاذع، دون غيره، من التلال أو الحواكير! كذلك، فإن «جبل المُصلّى» هو متراس البلد المبارك، الذي يردّ جنود الموت خائبين، فإذا وقف الشبان بحجارتهم أو بنادقهم، على جبهة هذا الجبل، انتصروا!! وأصبحت زخّات الموت الاحتلالي فقاعات، تدفنها حجارة الجبل وترابه المقدس، وطالما ألقت الطائرات شواظها وقنابلها، دون أن تمسّ مزقة زعتر، أو هامة فتى متحفّز، بل تنطفئ القنابل، كأنما غُمست في رمل مبلول ... ولا نبالغ!
أما «بطن الضبع» الواقع شمال يعبد، أو كما ينبغي أن يُلفظ: ببطن الظبع، فإنه المنطقة الأكثر وعورة وغموضاً! وهنا، في بطن الظبع يتعالى شجر البُطم والسريّس، مثلما تنسرب مياه الأساطير والحكايات، عن الغول، أو الضبع، الذي يهوس الرعاة، أو يأخذ الرجل إلى مغارته... فلا يسترد وعيه حتى تضربه بوابة بيت الضبع، على جبينه، فيوقظه دمُه. وعلى التلال المجاورة تتكوّر المفاحم، وسقائف الأغصان، وسيقان الشجر المقطّعة... وحذار من فحم يعبد، فإنه أسرع اشتعالاً من سعير جهنم، أو وادي الويل المهول!
وماذا بعد؟
ثمة ميزة ليعبد، فهي لا تقدّم الشهداء أفراداً ووحداناً، بل توائم وجماعات! وعلى الباحثين في نظريات الحاسّة السادسة، وما يسمى «بالتلبثي» أو توارد الخواطر، عليهم أن يأتوا إلى يعبد، الآن، ليدرسوا ظواهر الشهادة الساطعة، والتي كان أكثرها وميضاً وإيلاماً، استشهاد الشقيقين التوأمين هلال وبلال أبو صلاح، في زمن واحد، اجتمعت فيه بغيةُ القتل في باغة القاتلين، ونخلّوا جسديهما، في لحظة واحدة، رغم أن هلال كان في مكان يبعد عن مكان بلال مسافة تزيد على الكيلومترين ... فكيف ذلك؟
قالوا:– وصدق مَنْ قال– إن هلال وبلال كانا أكثر من شقيقين، جاءا من رعدة واحدة أو من رحم شريف واحد، بل كانا جسدين بروح واحدة، تناسخت فيهما! ويشهد المعلمون في المدرسة، أنهما كانا يلفظان جواب السؤال معاً، ويرفعان أصابعهما للردّ سويةً، ويحبّان الألوان نفسها، والمشاوير ذاتها، والطعام نفسه ،،، كانا يسيران معاً، ولا يتكلمان، فثمة خيط ضوئي يصل بين حنجرتيهما وقلبيهما، لهذا، كانا فجأة ينظران لبعضهما البعض، يبتسمان أو يسألان!!
وكان النعاس يقسم جناحيه عليهما، فيضع جناحاً على عيني هذا، والآخر على وجه ذاك، وكانا يستيقظان في ثانية واحدة!! وكانا هادئين طيّبين بشوشين، لم يعشقا فتاة تعتلي سطوح البيت، أو تطأ الطرقات مثل القبّرة في الربيع، لأنّ كلاً منهما أراد أن يترك لصاحبه نبض الزهرة الأولى، وحرقة الجمرة النابضة .. فآثر كل منهما الأمر للآخر .. وهكذا، لم تحظ مليحة الحيّ ببرق النظرة من هذا أو ذاك.
وقبل أن يسقطا في دقيقة محددة موسومة بالرصاص، نظرا طويلاً لبعضهما البعض، ومشيا بخطوات ثابتة متسقة، وفتحا الباب، وذهب كل منهما إلى مشواره الأخير .. ولم يودّعا بعضهما، لأنهم سيلتقيان، بعد قليل، جثتين تفضيا بالزبدة الحمراء، وستتحد روحيهما، لتصعدا معاً إلى الله.
ثم قالوا: مضى هلال إلى مدخل البلدة الشرقي، ومضى بلال إلى مدخلها الغربي، كأن كلاً منهما سيضرب

الأخطبوط في رأسه المرعب، أو ليمنعا الأفعى الخرافية، من أن تمدّ أجراس سُمّها إلى البيوت والطين والزرع البريء ... وانفلت الرصاص. وكان هلال على موعد، مع خمس رصاصات، نفذت من صدره إلى قلبه وخرجت من ظهره، وكان بلال، مع خمس رصاصات أخرى، نفذت من ذات الصدر والقلب والظهر .. وسقطا سروتين ... والدم ينضح سخياً ساخناً صافياً من جذعيهما...
ونادى المنادي أنْ ادفنوهما معاً، فهما واحد في واحد. غير أنهما تجاورا في لحدين جارين، وعليهما سعفتان من نخلة واحدة.

* * *

يقول حارس المقبرة، ثمة قنديل، يشعّ ليلاً، من فوق قبر هلال وبلال!
– لكنهما قبران أيّها الحارس؟
بل قبرٌ واحد، فقد اتّحد الشاهدان، ولملم تراب القبر رداءه، وحطّ على تراب القبر الآخر، وأصبح قبراً واحداً، يليق لأن يرتوي بمصحف واحد، أو فاتحة واحدة ... ألم تروا أن ثمة سعفة نخل واحدة؟ أين السعفة الثانية؟

* * *

يا حارس القبور المُضاءة بالبابونج، وصحن الجمر، والكتاب الواحد والبُطمة الشرسة، لقد رفع بلال الأذان اليعبدي لحجيج الانتفاضة، حتى لا ينهب صدى معركة الشيخ، حجارةَ وادي السريس، بل ليحلّ صهيل الأبدان، وغناءُ الثاكل، في كل الجنبات والتلال. وحتى يطلّ هلالُ العيد واضحاً، جلياً، يبشّر بأن الله افتدى الأقصى بكبش يعبد المُكحّل الجليل.
وثمة كلمات من حجر، بها يتوب الله علينا، لتكون سجدةُ الأنبياء، بدايةً لصلاةِ الجسد الغارقة، في شرايينها المفتوحة، علًى الساحل والمرج، والقرى الراضية المرضيّة.

أعراس قلقيلية المختلفة

في قلقيلية، ما يوحي للأعراس! ليس لأن فتيانها يلدون وهم يعرفون كل أشكال الرقص الفلكلوري والدبكة الشعبية، ويحفظون، عن ظهر قلب، دلعونا وظريف الطول، وليس لأن الزقّة القلقيلية، لا تعادلها زقّة في الأرض!! بل لأنّ أعراس قلقيلية مختلفة وكاوية وعالية، وللعرائس فيها رائحة الملائكة وزهر الليمون.
قلقيلية، سرّ الأرض التي نهبوها عشيّة النكبة، فذهبت إلى شرق الجبال، لتزرعها برتقالاً وعنباً؛ وتضع في حضن كل صخرة زيتونةً ومسكب «شجّيرية»، وتحيل الصوّان إلى بيارات مُمرعة، والحواكير الحجرية الجرداء إلى مروج لليّمون واللوزَ.. ولم تترك قلقيلية شبراً، إلاّ وترتّق بالخضروات والفواكه الموسمية البعليّة، أو التي وصلتها مياه الآبار الارتوازية، الأكثر في فلسطين، لتجعل براريها لوحة

مكتملة الاخضرار والندى.
قلقيلية، التي اقتطعوا من لحمها عشرة آلاف دونماً عام 1948، اتسعت، وحملت عن يافا بياراتها وبرتقالها الحزين! بعد أن قدّمت كوكبة مكتملة من الشهداء، وشهدت العديد من المعارك التي امتدت من راس العين جنوباً حتى الطيرة والطيبة شمالاً، وملَبّس وكفر سابا وغابة عزون غرباً. وظلّت قلقيلية تلوّح بقنديلها في ليل النائمين، مما دفع الدولة العبرية عام 1956 إلى التسلل ونسف «العمارة» أو «المقاطعة» على رأس مَنْ فيها، فاستشهد سبعون رجلاً غير منقوصين! وقبل حرب حزيران المشؤومة ببعض سنوات، حاولت إسرائيل، غير مرّة، نسف محطات الوقود في قلقيلية، وكذلك نسف وتفجير عدد من الآبار الارتوازية التي يبلغ عددها أكثر من خمسين بئراً في محافظة قلقيلية.
وقلقيلية التي أنبتت الرجل الضمير «أبو علي إياد» ظلت أرضها تنبت أشجاراً شهيدة، تموت واقفة ... ولا تركع! وإنّ مَنْ يرضع من برتقالها البلدي، فكأنما ينغسل قلبه من كل جُبن وسواد.
هذه قلقيلية، التي أُحبّها، وأجاهر بمحبّتها، وبانتمائي لها، ولزقّاتها وحاراتها وأهلها، من «صوفين» شرقاً إلى «كنايات دحبور» غرباً ومن «بيارة أبو الهزّاع» جنوباً حتى «جنانة الحيوانات» شمالاً. أحبُّ فيها كل شيء، من واد أبو اسكند حتى الراهنات، ومن الرزّازة حتى واد الصراصير، ومن واد القُقع حتى الجامع العتيق، ومن السوق للمسلخ، ومن البيادر للملعب، ومن السعدية للمرابطين، ومن كل ذرّة إلى كل ذرّة ...
قلقيلية، التي ودّعت خمسة شهداء معاً، في ساعة واحدة اعتلوا قائمة الشهداء مع الذين سبقوهم، تضيف أسباباً أُخرى لمحبّتها والانتماء لها والتهليل لاسمها، وأنا على يقين أن قلقيلية لا تنام على ضيم، بل ستجعل كل برتقالة قنبلة في وجه الخونة والساديّين، وستكون كل ورقة ليمون عَلَماً يرفرف في سماء البلد وقلبها الحزين، وستجعل كل جنازة عُرْساً صعباً وزفّة لا تنتهي، حتى يُبشّر «زامور» البلد، الناسَ كل الناس، الطيبين الرائعين الصادقين، أن هلال الحريّة قد طلّ، وغداً عيد آخَر، هو عيد دولة الشهداء الأبرار، وعاصمتها القدس ... التي تنتظر.

ثابت، لم يعتذر عن موته

يحق لعيني الفهد الخضراء، اللتين انطفأتا، باغتيال د. ثابت الثابت، أن نَصبغ أسناننا بالسواد، حزناً ومرارةً، وأن نهيل الرماد والتراب على رؤوسنا، وأن ينتحب القلب، ويجوح الصدر ... حتى لا يظل دمع في الرأس.
مَنْ يُصدّق أن ثابت مات!؟
–استغفر الله العظيم–
هل رأيتم رجلاً من ندى وريحان، ووجهاً من فرح الأطفال، وضحكة من رذاذ العيد؟
ذاك ثابت الثابت.
وهل عانقتم نهراً في جسد يضفضف بالنور والذهب؟ وهل أحببتم صلاةَ الشجر، أو لقاءَ البعيد العائد؟

وهل حملتم زهرةَ الحليب إلى الأمهات، بأناقة وخشوع؟
لقد كان ثابتُ في العناق المجيد، حتى سقط!
ثابت (أبو أحمد) مات. إذن لتدقّ الأجراس ألف ألف عام، ولتُكَبّر المآذن ألف ألف مثلها، وليكتبوا على مداخل المدن والبلاد: أن ثابت مات!. فلتُرضع السروةُ ابنتها لبناً من دمعها عليه، ولتُطلق السباعُ قشعريرةَ الوديان بعويلها، لأن أبا الجبال مات، وأبا الينابيع مات، وأبا الطيور البريئة ماتَ.
مَنْ رأى منكم أبا أحمد في السجن؟
كثيرون، بالتأكيد!
كان تاج شمعة بحجم الإنسان، يحبّ الشعر الواضح وأطفال السخرية، ويمتعض من الالتباس والغمغمة. قليل الكلام، دائم الابتسام، لم يلقَ بالاً لقمصان السجن أو لزمهرير الهزيع. كان يفرك كفّيه، ويعاود الاطمئنان على المرضى، يجسّ نبضهم، ويعصر خرقة الماء، ويبسطها على جبين مَنْ وقع في حمّى تردّد المناخ.
حُمْرةُ وجهه زائدة، كأنه مرهون لغضب أبدي، أو كأنه من سلالة «الزهراء» الطاهرة.
على مثله يبكي الرجال، وعند موته يموت الصبر، ويصبح الحزن وحشاً يفتتّ الكبد ويحرق القلب.
مَنْ رأى أبا أحمد؟
كان زهر الليمون الشتوي يسّاقط من أكمامه، ويطلّ النرجس من عنقه المشرّب بالمغيب، كانت تَحفُّهُ عرائسُ الغموض، وتحمل خطوته إلى درج الصباح، فيظلّ واثقاً رائقاً يضوّع الطريق بالأريج.
كان في المعتقل، يرقب رقعة الشطرنج، حتى إذا فرغ اللاعبان، نصح الغالب والمغلوب، وبيّن لهما أخطاءهما ... وعندما يطلبه أحد للمبارزة، كان يقول له: إن بيادقي من لحم ودم، وأنا الحصان والقلعة والملك!
كيف سمحتَ لهم أيّها الملك، أن يُقلّبوا جثمانك، أمام كاميرات الصحافة، ليظهروا للعالَم مكمن إصابتك ومداها ... ولم تبعدهم؟!
كنتَ مستسلماً، ذراعاك على بطنك مقيّدان، كنتَ حيادياً، ثم دفعوا بك إلى الصندوق المُعتم البارد!
انتظرتُ أن تدفعهم بعزيمة يديك، وأن تنهض بكامل نبيذك وعسلك، وأن تذهب إلى ملابسك، فترتديها من جديد، وتعود لإصلاح السيارة من ثقوب الرصاص الغليظ.
لماذا لم تفعلها وتنهض يا ثابت ... لماذا؟
هل ذهبت إلى الجنّة!؟
حسناً، طولكرم جنّة أيضاً، وأقسم بالله، لو أنكَ سمعتَ بكاء أبنائك وأهلك ونشيج صراخهم، لكشفتَ غطاء النعش، ونزلت منه ... وذهبت إليهم، تعتذر لهم عن موتك!
لكنك لم، ولن تعتذر، كأنك تريد بموتك أن تدفن قرن المظلمة والاستلاب، وتبعث بدمك الجُلّنار ذكرى العاصفة المتجددة، حتى الأسوار والنشيد الأخير.
وهل نحن أحياء لنقول إنك ميت يا ثابت؟ وكيف نكون أحياء وصخرة المعراج محاطة بسنابك خيل الآخرين، ولم يرتفع حزننا الغولي فوق قامة الفقاعة، أو على ضباع أسبارطة، التي تلعق دماءنا بأنيابها

وخراطيم حديدها المُهلك.

وهل سنواصل السلام، بعد قليل؟ لتنسرب الرغوة الفاسدة إلى رئتي القرى والصلوات، ونطوي صفحة وجهك الأرجوان؟

أرى حبّةً من كهرمان صدرك تسقط في الطريق .. وبعد قليل، ستنفجر الأشجار، وينفضُ فتى العاصفة غُصْنَ البرق، لتنثال على الدنيا أنوار المجد والخلاص! عندها، ربما، سنبكي رجلاً، كان ثابتاً على عهد التراب، وكان اسمه العالي المسجى: ثابت ثابت!